

المعركة الحاسمة



وكان من الطبيعي - لولا اصرار المصلحة الانكليزية على تنفيذ المعاهدة - أن يعود الأمن إلى نصابه بعد وعد الوصي السامي . ولكن تصريحات كانت تصدر في لندن مرة عن وفد المفاوضات ومرة عن وزير خارجية بريطانيا - كما قلنا - كانت تدعو الى الشك والريبة ، بل كانت تعالن الرأي العام بشيء من الاستخفاف مستوحى من اساليب دزرائيلي ومكيا فيلي العتيقة . وذلك ما حفز الوعي للاستعداد وصهره ، ووطنه على لقاء المكاره مهما كانت .

لم تخمد النار التي اضطربت صباح ١٦ كانون الثاني يوم نشر المعاهدة . كانت جذوتها تتوهج وتتعرض لنسيم الوعي الذي أصبح يهب رخاء في هذا البلد فينعش النفوس بعد أن ظننا أن النكسة الوطنية بلغت مبلغ اليأس في هذا الوطن العزيز ، وان السموم الاستعمارية نفذت منه الى مقتل - لا قدر الله .

ولم تخل هذه الفترة - بين ٢١ كانون الثاني وبين ٢٥ منه - من مظاهر الاستعداد للوثبة الكبرى ، فقد كانت ميادين الطلاب تحتشد ، وكان المحاصرون يتابعون الحركة بيقظة .

وفي صباح الاثنين ٢٥ كانون الثاني عاد الوفد من لندن . وكان منتظراً أن تعلن الوزارة استقالتها نزولاً على الرغبة الاجتماعية في اسقاطها ، وتمشياً مع روح البيان الملكي ، غير أن الذي حدث هو تمسك الوزارة بالحكم .

وعقد قصر الرحاب العامر صباح هذا اليوم مؤتمراً استمر الى مساءه . وكان المؤتمر قاصراً على الوفد المفاوض ووزارته . وكان الوفد يحمل صلاحيات (لندنية !...) تعهد لقاءها الانكليز بتنفيذ هذه المعاهدة بالقوة والاكرام ، معتمداً من الناحية القانونية على عضد النواب له .

وهكذا بارح رئيس الوفد المفاوض المؤتمر المذكور ليعلن بيانه الاول على الشعب . فقد قرر هذا المؤتمر اتباع سياسة (الجلد) في سبيل البقاء في الحكم وتنفيذ معاهدة « بورتسموث » ، وأعد لذلك المحاكم العرفية وغلق المدارس ، واستعمال اقصى وسائل القوة بحجة ارجاع هيبة الحكومة .

وفي ساعة متأخرة من ليلة الثلاثاء سمع المذيع يرسل من حنجرة واسعة صوتاً عريضاً يضرب الآذان ضرباً وهو ينهبها الى الاستماع لبيان رئيس الوزارة . ثم يتلو البيان بالطريقة الاملائية في حماسة ظاهرة .

ويتلخص البيان بما يلي - والكلام لرئيس الوزارة - « عندما

كلفت بالوزارة أدخلت في منهجي تعديل المعاهدة العراقية -
الانكليزية، وباشرت فعلاً بذلك في شهر مايس. واستمرت المفاوضات
الى كانون الاول سنة ١٩٤٧ حيث توصلنا الى وضع أسس صالحة .
وبعد سفرنا الى لندن عقدنا المعاهدة الجديدة . وستطلع الامة العراقية
على شرح بنودها ومراميها بالتفصيل . وعندئذ سيكون للامة الحكم
الفاصل والبت فيها سلباً او ايجاباً . وهذا حق طبيعي للامة كما تفضل
سيدي صاحب السمو في بيان التشریفات .

فارجو من اخواني أبناء الشعب العراقي الكريم أن يخلدوا إلى
السكينة ويتركوا كل ما من شأنه الاخلال بالأمن والنظام ومخالفة
القوانين الواجبة الرعاية .

وقد فهم الجمهور هذا البيان على أنه نحد ، وتمديد ، ومضي
بتنفيذ المعاهدة . لأنه لم يشتمل على غير أمرين :

١ - تفسير بيان الامير في صالح الوزارة .

٢ - الاعتماد على اكثرية مجلس النواب في تصديق المعاهدة .

لذلك ثارت الجماهير من فورها دون انتظار الى الصباح ،
وحدثت في الليل اصطدامات مؤسفة في الكرخ هالت فيها الدماء .

*

حتى أضواء الفجر كانت شاحبة صباح الثلاثاء ٢٦ كانون الثاني .
وقد استيقظت شوارع بغداد على غير عادتها مبكرة جداً فاذا هي
ميادين كميادين سنة العشرين ... طلاب فقط ؟ .. طالبات فقط ؟ ..
لا إنه الشعب بكامله يوج كالبحر في إرعاده وإزباده ، وكالتيار في
قوته واندفاعه .

ولما تعالى النهار كانت سيارات الشرطة تحترق بانفاس الجماهير ، وكانت الاستحكامات تنتصب في كل مكان من الكرخ والرصافة والجسر بينهما أيضاً هذا الميدان الذي كان يقتل بعبوث المهى في السلم ... أصبح يقتل بالرصاص والنار في هذه المعركة . ترسل الجماهير صفوفاً صفوفاً ، وتدفعها الى الموت موجة موجة فتلقاه مشتاقة وتضطجع منه على فراش (الشهادة) الوثير .

ثم اشتد الكرب حتى خشي الذين بأيديهم هذا السوط العنيف أن تعصى أوامرهم وتخالف الشرطة ، حتى الشرطة ، عن ارادتهم . وفي غمرة هذه المحنة استقال رئيس مجلس النواب معالي القصاب والجهة الدستورية التي بلغ عددها (٢١) نائباً .

وبدا للوزارة ان استمرار المعركة على هذا النحو أمر يؤول الى خسرانها .

فأرأت أو رأى الاستعمار الاستنجد بقاعدة (فرق تسد) ليستطيع بسحر هذه القاعدة أن يشق الصفوف ويستولي على الموقف .

فانطلق في حواشي المعركة همس يعلو وهو خائف يدس هنا وهناك : انها معركة طائفية !..

وكان جوابها ان ضحك الناس في غمرة المحنة وسخروا ومشت الجبهة على بركة الله .

ولما عادت هذه الهمسات مخدولة نشطت القيادة الحكومية للعنف من جديد . واذيع في يومنا الخفيف هذا - الثلاثاء ٢٦ / ١ / ٤٨ - ان بيانا سيلقى من الاذاعة ، ولم تكن الاعاليل تجدد الى نفوس

الخبراء سبيلاً في تعلقة مسلية ، فالبيان الموعود لرئيس الوزراء ولا ينتظر منه غير الضغط على فكبيه في حث البنادق على الاطلاق .

ولما كان الظهر انطلق صوت المذيع يعلن البيان ، ويتلخص هذا البيان بوعيد حريع « فعلى اولياء الطلاب أن يحجروا على اطفالهم (?!...) وعلى الناس ان يخلدوا الى السكينة ، فان الحكومة جادة في الضرب على هذه الحركة » .

وكانت كل خطوة للحكومة على هذا القرار تضاعف الشعور بالنقمة وتبعث على الاستمرار في الجهاد. ولو كانت الحكومة على شيء من استقرار الرأي لكانت بدلت هذا الاسلوب الخفيف في نتائجه اكثر من اخافته حال المعركة ، إذ أيقظت في نفوس الجميع بالاضافة الى الشعور الوطني الشامل غريزة الدفاع عن الذات ، وكل مشغل في هذه الجبهة المباركة اصبح لا يأمن على نفسه حين تهدأ الحركة من مطاردة الحكومة له ، لذلك كانت هذه البيانات الفجة زبناً يلقي على النار. ولم تكن العاصمة وحدها مقراً لهذه الحركة الكريهة ، فقد ثارت النجف و كربلاء والحلة والديوانية والبصرة والرميثة والموصل والسليمانية وغيرها من الالوية والاقضية الواعية المتضامنة مع بغداد تضامناً عظيماً .

*

وقد هال الزعماء والمخلصين من أبناء هذه الامة وقادتها ان تستمر هذه الكارثة دون وسيط ، وعظم عليهم ان لا يؤدي اجماع الامة الى حل سريع يماشي الرغبة العامة ، فلبجأوا الى سمو الوصي يكلمونه في الموقف الحاضر .

والمحصر النشاط السياسي يوم الثلاثاء في قصر الرحاب . لان
بغداد كانت ساحة لنشاط حربي فلا موضع فيها لشيء من السياسة .
وهناك على مقربة من الامير عبد الاله ، تلاقى صفا القيادتين :
الشعبية الوطنية ، والحكومة الانكليزية . وكانت الاولى برئاسة
سماحة الصدر والثانية برئاسة فخامة السعيد . وكان سماحة الصدر
يرى وجوب الاسراع باقالة الوزارة ويؤكد ان كل لحظة تسبق
غيرها الى الاقالة تعتبر ربحاً عظيماً لمصلحة الوطن . اما نوري ، فكان
من رآيه استمرار الحكومة في الحكم وان تطلق لها الصلاحية خمسة
ايام تجعل فيها النهار مظهراً للافتتان باظهار السطوة وشدة البأس !
والليل متاراً للاعتقالات والفتك .

وكادت خطة نوري السعيد ان تستولي على الموقف اذ كتبت
صورتان لارادتين ملكيتين احدهما تعلن الاحكام العرفية ، والثانية
تمنع التجول ، وحملت هاتان الصورتان الى قصر الرحاب للتوقيع ،
كما كانت ثمة محاولة ترمي الى اسناد حفظ الامن للجيش .

ولم يكتف بهذا بل ارسل نفرأ منهم السيد ضياء جعفر وزير
المواصلات والاشغال يبتون مسموم التفرفة ويوزعون المناشير الضارة
مشفوعة بالبذل السخي ليصدعوا الجبهة المتماسكة ، ويمهدوا
لاستيلاء السلطة .

ولكن الخطر المائل هذا تجسم اسماحة الصدر ومن كان يقف الى
جانبه من رجال العراق ، فانقضوا على هذه الخطة حتى نقضوها بما
اوضحه سماحة الصدر من العواقب الوخيمة التي تنتظر البلاد وراء
هذا التدبير اللئيم ، ولم يتغلب سماحته على الموقف بسهولة فقد

عكف في قصر الرحاب من الساعة العاشرة من صباح الثلاثاء حتى الثامنة مساء على انضاج ثمة النصر باسقاط الوزارة ، ولو كشف الغطاء عن المعركة الدائرة في قصر الرحاب يومئذ بين الحرية والعنف ، وبين الاستبداد والديمقراطية ، وبين الوطنية والمصالح الاجنبية -- لو كشف الغطاء عن هذه المعركة ، لظهرت معركة اكثر هولاً مما كان يدور في الشوارع من التطاحن ، وقد كان المصير متوقفاً على نجاح هذه المعركة دون معركة الشوارع لانها هي الاساس في واقع الامر وحقيقته . ولو قدر لنوري ان يتغلب - لا سمح الله - لحلت الفاجعة التي كنا نخشاها ، الفاجعة بغلبة السيف المصلت .

نثبت هذا لنضع بطولة السيد محمد الصدر واصحابه في كفة وبطولة مجاهدي المعركة في كفة ، وهكذا يجب ان يخلد الموقف في التاريخ المتجرد ، والبحث الحر ، والنظرة الواقعية ، واننا لا نؤخذ بالصيحات فالموافق الحاسمة - ولا سيما موقف كهذا - لا تتقرر اذا لم تستند الى (جهاد) سياسي .

وقد رانت مبلغ العناء في وقوف السيد محمد الصدر امام تيار السيد نوري السعيد ومن ورائه مصالح بريطانيا العظمى .

ولا بد لك شيء على مبلغ هذا العناء كنصر الحركة الشعبية في اقناع سيد البلاد بوجوب تنحية الوزارة القائمة ، اذ اقبل سموه بنفسه على شعبه الظالم الى نهلة من بياناته ، وكانت الجماهير محتشدة وراء اجهزة الراديو في كل مكان نحو الساعة الثامنة ليلة الاربعاء حين القى سموه نبأ الاستقالة فقال :

« شعبي العزيز !

من المؤلم حقاً ان تحدث بين اخواني ابناء الشعب الواحد حوادث مؤسفة ادت الى إراقة الدماء ، ولا اشك بان كل واحد منكم يشاركني ألمي هذا . والان وقد استقالت الوزارة القائمة وقررنا قبول استقالتها فاني اطلب من جميع افراد الشعب على اختلاف طبقاته التعاون معي بالحلود الى السكينة والهدوء . وتجنب كل ما هو مؤد الى الاخلال بالامن والنظام والقانون للوصول الى ما فيه خير البلاد والنتائج الحسنة التي يتوخاها الجميع ، كما ادعو جميعكم الى الانصراف لاعمالكم الاعتيادية . ومن الله التوفيق . »

وهزت بغداد من هذا البيان فرحة كافراح الاعياد ، وكانت استقالة الوزارة دبة لتلك الدماء البريئة الطاهرة . رأيت المثقل المجهود باجسم الاعباء يلقي عن كاهله العبء الجسام ؟ بمثل هذا أحس الناس جميعاً وهم يتنفسون الصعداء ، في تلك الليلة الربيعية .

حكومة الثورة

ولم يكن تأليف الوزارة الجديدة أقل أهمية في نظر العراق ونظر الواقع ايضاً من سقوط السيد صالح جبر ، فأهمية وشخص الرئيس الجديد متصلة كل الاتصال بالمعركة التي ما تزال طرية الجرح ، ذلك لان « الشخص » عنوان لأحد الرايين الذين اضطروا بمثل العنف والشدة اللذين رأيناها .

فاذ جاء رجل من طبقة صالح جبر كان استمراراً لوزارة

صالح وكان معنى ذلك انتصار المصلحة الانكليزية في نهاية الامر ،
وبقاء ما كان على ما كان .

وعلى هذا فلن يتم النصر الشعبي إلا اذا الف الوزارة «شخص»
شعبي . وهذا ما حول الجهد الذي كان منصرفاً لازاحة السيد صالح
جبر ، إلى اسناد الوزارة الى السيد محمد الصدر .

وبات العراق في ليلة بعيدة النجم ، طويلة كظل الرمح - كما
يقول العرب القدماء .

وما رأيت اجماعاً كالاجماع على اللجوء الى « الصدر » في تأليف
الوزارة . لقد دل الحادث الجبار على ان « الرجل » زعيم .. رجل
الساعة بحق .

وما أدري لو لم يكن « الصدر » موجوداً كيف تحل الأزمة ،
فلا تسألني هذا السؤال ، فالجواب عليه صعب المنال .

كان السيد محمد الصدر منذ صباح الاربعاء بعد صباح الثلاثاء في
قصر الرحاب ، ولم يتردد الامير بتكليفه فانه أعلم الناس بما له من
زعامة لا تشبهها زعامة أخرى في السيطرة على الفترات الصعبة .

وكان « الصدر » قبل التكليف مبدئياً ولكن بعض شروطه في
القبول كانت تتسع للتردد في اسناد الوزارة اليه فكلف بعده السيد
أرشد العمري ، ولكن الحـبر لم يكـد يتصل باهـيئات السـياسية
والشعبية حتى شدوا أوساطهم من جديد ، لقد فهموا من ذلك أن
صالح جبر لن يعود الى الحـكم باسم آخر ، ولو تم الأمر ونجح
بتشكيلها أرشد العمري لكانت فتنة من طراز لا يعرفه تاريخ
العراق المليء بأنواع القلاقل .

ومع ذلك فقد جهـد السيد أرشد العمري وفاوض أشخاصاً
شعبيين منهم معالي السيد سعد صالح ومعالي كامل الجادرجي ومعالي
الفارسي وناساً كثيرين ، ولكنه آب بالفشل ولم يستطع اقناع أحد
غير ثلاثة نترك اسماءهم وهم في كل حال ممن لا يطمئن اليهم
الرأي العام .

وطافت الوزارة أربعاً وعشرين ساعة و « الصدر » تمتنع عليها
في داره على شاطئ « دجلة الغربي » ، والوفود من الشبان والشيوخ من
مختلف الطبقات يلحون عليه أن يقبلها ، وقد أعلنت الاحزاب
تأييدها لسماحته وإبـاء التعاون مع غيره . حتى اذا انتصفت ليلة
الخميس ٢٩/١/٤٨ لم يجد بداً من قبولها إزاء هذا الالحاح الشعبي ،
وإزاء تكليف سيد البلاد ، وإزاء الواجب الذي توجه اليه بعد
تعيينه دون غيره لادارة الدفة وتسلم الحكم .

وانطلقت البشري بعد منتصف الليل تنساب في أسلاك التلـفون
تعلن قبوله الحكم ، ولم يُعهد قبل الصدر رجل يهدي اليه الحكم فلا
يقبله إلا كارهاً مكرهاً .

اما اعضاء وزارته فقد اختارهم على النحو التالي :

— فخامة جميل المدفعي للداخلية .^١

(١) لم يستطع فخامته المضي بتحمل المسؤولية فاستقال بعد مدة قليلة من
استيزاره كما استقال السيد عمر نظمي تنحياً عن العدلية من أجل الشكوك التي
حامت حوله قبيل الانتخابات اذ طعن بانه متحيز فيها ولانه كان المعارض الوحيد
في مجلس الوزراء لحل المجلس . واجري التعديل الوزاري فوزر للداخلية الفارسي
وللعدلية الراوي وللشئون الحيدري وبعد وفاة الباجه جي عدلت الوزارة مرة اخرى
فنقل الفارسي الى الخارجية واسندت الداخلية بالوكالة للسيد مصطفى العمري .

- فخامة حمدي الباجه جي للخارجية .
- = أرشد العمري للدفاع .
- معالي محمد رضا الشبيبي للمعارف .
- = صادق البصام للمالية .
- = نجيب الراوي للشئون الاجتماعية .
- = جلال بابان للمواصلات والاشغال .
- = عمر نظمي للعدلية .
- = مصطفى العمري للاقتصاد .
- = مهدي كبه للتموين .

واصحاب المعالي نصره الفارسي وداود الحيدري ومحمد الحبيب
امير ربيعة وزراء بلا وزارة .

وفي بعض اعضاء الوزارة وقفات لانظر كثيرة ، ولكن الرأي
العام وسائر الاوساط رأيت الضمانة المطلوبة في شخص الرئيس .
ولا جدال في ان وزارة الصدر انبثقت من ارادة الشعب
فكانت بهذا الوزارة البكر في تاريخ العراق الحديث .

ولا جدال في ان رئيسها في نظر العراقيين زعيم وطني قبل
كونه حاكما ، وبذلك استحق ان يثق به الجميع في هذا الظرف الجريح
ليقودهم الى شاطئ السلامة وحرم الاستقلال ، وله في ذلك تاريخ
حفظوه منذ سنة العشرين .

وكان المعروف ان من شروطه لتولي الحكم رفض معاهدة
بورتسموث وحل مجلس آذار عام ١٩٤٧ وتأجيل تعديل المفاوضة
وتحرير الرأي والصحافة . وان يكون له اختيار الوقت المناسب

لاستقالته من الحكم.

وجدير بالذكر انه لم 'يشغل' بالحكم على كثرة مشاغله فيه عن مشاركة الناس في مشاعرهم اذ طاف بصرعى الحركة وواسى جرحاها، ووزع أوقات عمله في ديوان الرئاسة فجعل للمقابلة العامة وقتاً خاصاً يومياً يسمع فيه الشكاوى بنفسه، وهذا مضافاً الى ما يقرأه من العرائض التي لم تكن تقرأ من قبل. ومن أطرف ما علمت ان راتبه الشهري ينفقه وينفق اضعافه من خالص ماله على فقراء مراجعيه في الضائقة الاقتصادية هذه، ولعل المثات بمن يستقبلهم يومياً لم يكونوا يجلهون في غير عهده ان يروا مجلس الوزراء الا من وراء حجاب .

إنها وزارة اشمرت الشعب انها منه واليه .
عن ذلك أسفرت المعركة الحاسمة ، وكانت استجرت من أجل الوصول الى هذه الغاية .